معهود العرب في تلقي الخطاب القرآني

قراءة في تفسير الظلال لسيد قطب

Arabs confided to receive Quranic discourse

د. إسماعيل نقاز

باحث جامعة وهران–2

تاريخ الاستلام : 2016/07/07 تاريخ القبول: 2016/09/04

Abstract :

Going to talk a lot in these years about the interpretation and understanding of the mechanisms inspired both in thought or jurisprudence in the modernist Western thought and the Arabic version of it, and in front of these challenges, which opened its theories and doctrines about the mechanisms of interpretation and understanding of the receiving and theories.

Key Wold :

Interpretation- mechanisms- jurisprudence- the modernist

يتوجه الحديث كثيرا في هذه السنوات حول آليات التأويل والفهم للوحي سواء في الفكر الأصولي البياني أو في الفكر الحداثي الغربي والنسخة العربية منه، وأمام هذه التحديات التي فتحت نظرياتها ومذاهبها حول آليات التفسير ونظريات التلقي والفهم، يقف الفكر الأصولي والمقاصدي ليستحضر قوته وبنيانه التليد في استعادة وإحياء المناهج العميقة في استنطاق النصوص وتأويلها، عبر محورية اللفظ/المعنى، الظاهر/ الباطن، التعليل/ التعبد، عرف اللغة/عرف الشارع، وغيرها من المسائل المحورية التي شكل البحث في أعماقها بنية معرفية ومنهجية متكاملة في قشيب تداولي يحكي متانة وصلابة لا يمكن اختراقها.

ولعل أهم ما انبرى إليه الأصوليون والمفسرون بحثا وتعميقا للفكرة في كيانه، هو الوعاء اللغوي العربي الذي يعتبر القناة التي يتنقل بواسطتها الفهم والتأويل، أو كما نص عليه الإمام الشاطبي بمفهوم معهود العرب/ معهود الأميين، والمقصود بذلك عادات العرب وأحوالهم في مخاطباتهم ودلالات العلاقات اللغوية في اجتماعهم وحياتهم.

فلا يمكن أبدا استناد البحث في الفهم والتأويل والاستنباط دون الاستعانة بالقناة الوحيدة في تنتقل من خلالها المعاني وتتجلى، فكان البحث في هذا الوعاء أمرا لا يقل ضرورة عن البحث في مقاصد الشارع الحكيم ومراميه التي تغيتها نصوصه.

يأتي معهود العرب في مخاطباتهم دليلا عميقا يبحث في فك الشفرة بين الألفاظ والبيئة التي ولد ووظف فيها، أو ما يسمى بالمواضعة والاستعمال في علم الوضع. فالتبيئة للنصوص واستنادها إلى معطياتها وبيئتها اللغوية سبيل أكيد في معرفة نصوص الوحي، فالقرآن المجيد نزل بلغة العرب ولا نعرف الوحي حق المعرفة إلا بمعرفة هذه اللغة كما نص على ذلك الإمام الشاطبي في غير ما موضع من موافقاته.

وفي هذا البحث ارتأينا أن نعيش فسحة تأويلية لسانية تجمعنا مع ظلال الإمام سيد قطب رحمه الله، لنستشف من هذه الظلال تجليات العرف اللغوي ومعهود العرب في استنطاق النصوص وتقريبها، فسيد قطب رحمه الله كان أديبا لغويا قبل أن يكون مفسرا، فلا شك أن نظرية معهود العرب في تفسيره الظلال أخذت موضعا واسعا وشاملا في معانقة النصوص وتذليل صعابها.

ينطلق البحث كاشفا عن مضامين هذه القاعدة الكبرى، وآليات توظيفها لدى سيد قطب رحمه الله في تجربته التفسيرية، لنرى كيف يجتمع المقصد اللغوي مع المقصد الروحي لاستجلاء المعنى من النص القرآني؛ فقد أعطى لمعهود العرب بعدا لا يقل أهمية عن البحث في مضامين مقاصد الشارع الحكيم، بل إنه رأى أن معرفة مقصد الشارع الحكيم لا تتجلى إلا باجتماع عرف اللغة ومعهود العرب في مخاطبتهم مع نظرة استقرائية ثاقبة للنصوص.

بعد ذلك ومن خلال هذه التداولية المزدوجة عرف اللغة/عرف الشارع ، يمكننا أن نصل إلى المراد، وأن نصيب عين الحق الذي ينفي عنه كل تأويل من شأنه أن يقلب النصوص عن عادتها وتركيبتها.يندرج بحثنا تحت المفردات الآتية:

– مفهوم معهود العرب في الحقلين الأصولي واللغوي.

– آليات توظيف معهود العرب في تأويل النصوص عند سيد قطب.

_ مفهوم معهود العرب في الحقلين الأصولي واللغوي:

إن البحث في ايتيمولوجيا المصطلح ينطلق من المدونة الأولى لأصول الفقه عند الإمام الشافعي، في كتابه الرسالة، حيث يعتبر أول من أولى المسألة اهتماما عميقا؛ بل إنه جعلها من أساسيات التأويل والقراءة الحقة.

يتوجه الشافعي في بيان مفهوم معهود العرب، إلى تحليل معنى أن القرآن المجيد نزل بلسان عربي مبين، حيث ينطلق من مسلمة اللسان فيجعلها الأساس، ويستدل بذلك على عربية القرآن.

ينطلق الشافعي من هذا التأسيس بقوله: « وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل **سعة لسان العرب**، وكثرة وجوهه، واجتماع معانيه، وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها » [1]. وهنا تتأكد معيارية اللسان العربي لدى عملية التأويل عند الشافعي ليبين عن مظانها، ويستدل على مواردها عندما يتوجه نحو بيان أعراف اللسان العربي ومسلمة التأويل التي تقتضيه.

يتوجه في إثبات المسلمة الأساسية في عربية القرآن المجيد على موارد النصوص القرآنية ذاتها التي تجيب وحدها :« فإن قال قائل ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب، ولا يخلطه فيه غيره؟ أجيب فالحجة في كتاب الله، وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه » [2]. وسرد كثير ا من الآيات والنصوص التي تبين ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: " وكذلك جعلناه حكما عربيا" [الرعد 38]. وقوله عزوجل:" وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين" [الشعراء 192/195].

وكذلك يستدل بالآيات التي تنفي عن القرآن أي لسان أعجمي، قوله تعالى:"ولقد أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين" [النحل 103].

إن هذه المسألة التي استثارها الإمام الشافعي قديمة، لكن دفاعه عن عربية القرآن وخلوه من أي لسان أعجمي، جاء بناء على التحديات التي كانت تواجهها الساحة الثقافية في زمانه، وأهم مقصد يرجع إليه في إثبات عربية القرآن، هو عدم التلاعب بالنصوص وادعاء أن بعضها

الأعجمي لا يفهمه العرب [3]، وهذا ادعاء يضرب في عمق العملية التأويلية التي تعتمد أساسا على سَنَنِ اللسان بالدرجة الأولى. ولهذا وجدنا الإمام الباقلاني يناصر قول الشافعي وينافح عنه.

لكن هناك من توجه إلى أنه لا إشكال أن يكون في القرآن المجيد بعض الألفاظ، وهذا لا ينفي عن القرآن عربيته، بل رأى أن القول النافي عن وجود بعض الألفاظ الأعجمية لا دليل له، ويعد ابن عباس وعكرمة من القائلين بذلك، إضافة إلى الغزالي والشوكاني.

هناك مذهب ثالث تجاوز هذه المعركة بأنه وإن وجد هنالك ألفاظ أعجمية إلا أن العرب عربتها وجعلتها ضمن اللسان العربي ومن هؤلاء ابن رشد الحفيد بقوله: « وبالجملة إن كان في لسان العرب شيء من غير ألفاظها فقد عربته تعريبا وغيرته تغييرا استوجب به اللفظ كونه من لغتها ومنسوبا إليها » [4]، وبهذا أخذ الإمام الشاطبي في موافقاته [5].

بعد تجاوز هذه المسلمة من طرف المفكرين الفقهاء الذين أثروا المعاني التي أوقدها الإمام الشافعي وهو يؤسس لقواعد القراءة والتأويل.

يعود الشافعي بعد تأكيده على مسلمته إلى بيان حقيقة معهود العرب عن طريق عرض لأهم المظاهر والأشكال التي ترد عليها الألفاظ في مخاطبات العرب وعادتهم اللغوية، فيجمل الحديث في تقاسيم ذلك بقوله: « فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها. وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول هذا منه عن آخره. وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص،

فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه. وعاما يراد به الخاص. وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره.

وتبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله، وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون إيضاح باللفظ كما تعرف الإشارة، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها، لانفراد أهل علمها به، دون أهل جهالتها.

وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة»[6]. إن هذا العرض الطويل أجمل فيه الشافعي أهم الموارد التي يرد فيها النص، ولا يمكن بأي حال أن نصرف دروب التأويل عن هذه العلاقات اللسانية.

يعود الإمام الشاطبي ليؤكد على ضرورة كلام العرب ومعهودهم، وقد اصطلح عليها بمعهود العرب، وأحيانا بمعهود الأميين، وعن ربط معهود العرب في مخاطباتهم بعملية التأويل يؤكد الإمام الشاطبي ذلك بقوله:« لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثم عرف، فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه »[7].

ويردد الشاطبي أهم الظواهر اللغوية التي يتوفر عليها اللسان العربي بقوله:« أنه أُنْزِلَ عَلَى لسان معهود العرب فِي أَلْفَاظِهَا الْخَاصَّةِ وَأَسَالِيبِ مَعَانِيهَا، وَأَنَّهَا فِيمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنْ لِسَانِهَا تُخَاطِبُ بِالْعَامِّ يُرَادُ بِهِ ظَاهِرُهُ، وَبِالْعَامِّ يُرَادُ بِهِ الْعَامُّ فِي وَجْهٍ وَالْخَاصُّ فِي وَجْهٍ، وَبِالْعَامِّ يُرَادُ بِهِ الْخَاصُّ، وَالظَّاهِرُ يُرَادُ بِهِ غَيْرُ الظَّاهِرِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْ أَوَّلِ الْكَلَامِ أَوْ وَسَطِهِ أَوْ

آخِرِهِ، وَتَتَكَلُّمُ بِالْكَلَامِ يُنْبِئُ أَوَّلُهُ عَنْ آخِرِهِ، أَوْ آخِرُهُ عَنْ أَوَّلِهِ، وَتَتَكَلَّمُ بِالشَّيْءِ يُعْرَفُ بِالْمَعْنَى كَمَا يُعْرَفُ بِالْإِشَارَةِ، وَتُسَمِّي الشَّيْءَ الْوَاحِدَ بِأَسْمَاءَ كَثِيرَةٍ، وَالْأَشْيَاءَ الْكَثِيرَةَ بِاسْمٍ وَاحِدٍ، وَكُلُّ هَذَا مَعْرُوفٌ عِنْدَهَا لَا تَرْتَابُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ هِيَ وَلَا مَنْ تَعَلَّقَ بِعِلْمِ كلامها »[8].

إن هذه المسلمة اللسانية القائمة على حدود التأويل، تقف سدا منيعا أمام التأويلات المختلفة التي تخرج عن حد ما تقصده الشارع الحكيم، وهذا يؤدي إلى فساد التفسير؛ حيث :« إن كثيرا مِنَ النَّاسِ يَأْخُذُونَ أَدِلَّةَ الْقُرْآنِ بِحَسَبِ مَا يُعْطِيهِ الْعَقْلُ فِيهَا، لَا بِحَسَبِ مَا يُفهم مِنْ طَرِيقِ الْوَضْعِ، وَفِي ذَلِكَ فَسَادٌ كَبِيرٌ وَخُرُوجٌ عَنْ مَقْصُودِ الشَّارِعِ »[9]، فقد أدرج الشاطبي معهود العرب من ضمن مقاصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام، وبين أن اقتضاء الإفهام متعلق بوعاء اللغة الذي انسابت من خلاله المعاني.

ونجده يؤكد ذلك في بيان ازدواجية اللفظ/المعنى، وأن الألفاظ وعاء المعاني، وأن معهود العرب في مخاطباتهم تقصدت منه الفهم:« أَنْ يَكُونَ الِاعْتِنَاءُ بِالْمَعَانِي الْمَبْثُوثَةِ فِي الْخِطَابِ هُوَ الْمَقْصُودَ الْأَعْظَمَ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ إِنَّمَا كَانَتْ عِنَايَتُهَا بِالْمَعَانِي، وَإِنَّمَا أَصْلَحَتِ الْأَلْفَاظَ مِنْ أَجْلِهَا، وَهَذَا الْأَصْلُ مَعْلُومٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ، فَاللَّفْظُ إِنَّمَا هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، وَالْمَعْنَى هُوَ الْمَقْصُودُ »[10].

فقد تبين لنا مما ذكرنا أن مفهوم معهود العرب لا يخرج عن كونه مسلمة مقاصدية تقصدها الشارع الحكيم في وضع الشريعة للإفهام بلسان العرب، وهذا الأخير يعتبر دعامة أساسية من دعائم العملية التأويلية التي يسلكها المجتهد.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن معهود العرب هو " **اتباع سَنَنِ اللسان العربي، وتقرير المعاني وفق تراكيبه وأساليبه التي سارت عليها عادات العرب في مخاطباتهم ولغاتهم**"

_ آليات توظيف معهود العرب

في تأويل النصوص وقراءتها عند سيد قطب.

تعتبر تجربة سيد قطب في تفسير القرآن المجيد رائدة ونوعية، حيث إن كتابه في ظلال القرآن نحى به نحوا فريدا، يبتعد به عن مناحي التقليد، والكتابة المعهودة، فقد توجه إلى النص القرآني بروح خفاقة من الروحانية، فاستجلى من مكنون كنوزه أنورا وشعاعات المعرفة الحقيقية، فرأينا مقاصد القرآن مسلسلة عذبة في قشيب منيع ومهيع رائق يحكي بهجة وولعا بمراودة الكتاب، فالذي يبدأ قراءة أجزاء منه يود أنه لا ينتهي عند حد. وهذه الميزة التي أعطت للظلال روحا يسري في النفوس، إنما تأتت من وراء زجالة اللغة والتحكم في أبجدياتها وجمالها، فسيد قطب قبل أن يكون مفسرا فقد كان أديبا ذواقا للسان العربي وتراكيبه.

إن نورانية الظلال تتجلى من رواء كل ذلك في الأسلوب الدعوي الروحي الخفاق الذي يخاطب العقل والقلب، بعد أن يلفت عنانهما إلى الواقع المعيش الذي تعيشه الأمة، فقد كان تفسيره قناة حقيقية، وصفحة جلية من خلالها نستهدي إلى هموم الأمة وأزماتها، ومن ثم السعي نحو علاجها وتدارك أدوائها.

إن اللسان العربي عند سيد قطب في تفسيره كان الأساس الذي منه يتوجه نحو آي الذكر

الحكيم، مبينا ومفسرا؛ بل ومبحرا في أغوار هذا النص المجيد.

يمكن القول بأن طريقة سيد قطب في توظيف الوعاء اللغوي، قد أخذت شكلا عميقا في استجلاء الإعجاز اللغوي القرآني، ويتمثل ذلك في النظرات الذكية التي استطاع من خلالها استصحاب النظر القرآني الغني في التراكيب ومظاهر الاستدلال، وطرائق التعبير، قد كانت مفازة وسُلَّمًا نحو تعميق النظر الحقيقي في الإعجاز اللغوي القرآني. فخلفية قطب اللغوية الغنية، إضافة إلى النص القرآني المعجز لغويا، أهلت قطب إلى أن يسبح بنا في تفسيره بطرائق أسلوبية واستدلالية وتعبيرية، استطاع من خلالها أن يخترق كل الحجب التي تحول دون الغوص في مقاصد الكتاب المجيد.

إن سيد قطب لا ينظر إلى اللغة نظرة جامدة سكونية، تتبارى فيها الألفاظ والتراكيب الجامدة، بل إنه يرى فيها كائنا ينبض بالحياة والمعاني الإنسانية الرقيقة. اللغة عند سيد قطب كائن مشاعري يخاطب الحياة في نبضها، ويحاكي الإنسانية في مشاعرها وأحاسيسها المعقدة، فلا غرو إذا وجدنا قطب يجعل من المعاني النفسية والاجتماعية مسرحا وتربة خصبة في ترجمة النص القرآني الذي ينبض بكل التراكيب الإنسانية والحياتية المعقدة فيسايرها، بل ويتجاوزها ليقيم فيها جسرا منيعا يبصرها بحقيقتها، وما ينبغي أن تكون عليه، كل ذلك عن طريق هذه الروح الخفاقة، إنها اللغة.

يحدثنا سيد قطب عن قيمة الأداء اللغوي في بيان الدلالة وروعتها بقوله:« إنّ الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن

مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأرق تعبير، وأجمله وأحياه أيضا ! مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجوّ. ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال. ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلا. لأنّ هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال. ومن ثم يدركون بوضوح أنّ هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً. وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني ..هي أنّ النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكلّ مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات. وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها. بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كلّ مرة أصيلا في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الموضع! وهي ظاهرة قرآنية لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها »[11]. إن هذا الملمح العميق لسيد قطب يوقفنا على أهم الآليات التي وظفها في بيان المعاني واستجلائها، وطريقة توظيف المعهود العربي أثناء التحليل والتأويل، وفي هذا الصدد نعرض لأهم هذه الآليات على سبيل المثال لا الحصر.

أهم ما يلفت إليه سيد قطب في توظيف المعالم الإعجازية الذوقية التي تخرج من كيان لغة العرب، النظرية التصويرية التي جعلها معيارا أساسا في جمالية القراءة والنظر الفسيح نحو مقاصد القرآن المجيد، ونحن هنا لا نخرج عن هذه الفسحة الإبداعية التي يعتبرها كثير من

الباحثين أن سيد قطب قد حاز قصب السبق في تذليلها وتوظيفها [12]، والحديث عن توظيف معهود العرب كثير لا يكاد يحصى عند سيد قطب، لكن سيكون حديثنا مقتصرا على النظرية التصويرية التي استجداها من وحي الوعاء العربي الزاخر.

إن أهم ما استوفاه من بنية اللغة وعادة العرب في مخاطباتهم يتجلى في المعاني النفسية والحسية التي كان يضربها العربي مثلا في بيان مراده ومقصوده خطابه، وقد توسع القرآن المجيد في توظيف هذه المظاهر اللغوية العميقة في التعبير عن المقاصد والمراد من الخطاب في وسط يزخر باستصحاب المعاني الشعورية والحسية وغيرها، يلخص ذلك كله سيد قطب في نظرية وظاهرة جعلها أساسا في الفهم والقراءة ألا وهي "التصوير الفني".

يحدثنا سيد قطب عن هذا الملمح البديع في تقرير المعاني القرآنية وبيان مقاصدها وتقريبها بقوله:« التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المُحَسة المتخيَّلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية ، ثم يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة ، أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخييل ، فما يكاد يبدأ العرض حتى يُحيل المستمعين نظَّارة ، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو سيقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أنه كلام يُتلى ، ومثل يضرب ،

ويتخيل أنه منظر يُعرض ، وحادث يقع ، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من المواقف المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة ، إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة » [13].

لقد أيقن سيد قطب قيمة البنية اللغوية التي يستخدمها القرآن المجيد في التعبير عن المعاني وتقريب المقاصد وتقريرها، حيث جعل من بنية التصوير البلاغية بوصفها قيمة عربية عريقة في مخاطبات العرب وأغراضهم، لكن هذه الأغراض التصويرية التي أبدع القرآن المجيد في تصويرها تحتاج إلى أديب ألمعي ومفسر لغوي ذواقة للوعاء العربي حتى يمكنه الوقوف على الآليات التي وظفها الشارع الحكيم من أجل توضيح المقاصد وتقريبها، وفي هذه الجولة سنقدم بين يدي هذا البحث أمثلة ونماذج يستلهمها سيد قطب من آي الذكر الحكيم ثم يوظفها في قراءة النص القرآني بعد أن يصوغ الظاهرة التصويرية العربية صياغة تستجيب مع طموح النص القرآني والحقل التداولي العربي.

فمثلاً في "في ظلال القرآن" يطالعنا سيد قطب منذ السطور الأولى بتطبيق عملي لنظريته: « التي تتجلى في قيام الكلمة مقام الحظ واللون، إذ سرعان ما ترتسم الصور من خلال الكلمات ، ثم سرعان ما تنبض هذه الصور وكأنها تموج بالحياة» [14].

وذلك في افتتاحية سورة البقرة عند رسم القرآن ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس ، نكتفي بمشهد من الصورة الثالثة ، وهي صورة النفس المعقدة الملتوية المضطربة الحائرة. صورة المنافقين:

" أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق .." الآيتان [15].

يقول: « إنه مشهد عجيب حافل بالحركة ، مشوب بالاضطراب فيه تيه وضلال ، وفيه هول ورعب ، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء .. صيب من السماء هاطل غزير فيه ظلمات ورعد وبرق ، كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون ، وهم مفزَّعون يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت.

إن الحركة التي تغمر المشهد كله من الصيب الهاطل إلى الظلمات والرعد والبرق إلى الحائرين المفزَّعين فيه إلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عندما يخيم الظلام ، إن هذه الحركة في المشهد لترسم – عن طريق التأثر الإيجابي – حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون ، بين لقائهم للمؤمنين ، وعودتهم للشياطين ، بين ما يقولونه لحظة ، ثم ينكثون عنه فجأة ، بين ما يطلبونه من هدى ونور ، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام ، فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ، ويجسم صورة شعورية ، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس» [16].

ما جاء في تفسيره لقوله تعالى:" إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا فيم كنتم، قالوا : كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصير" [17]، فالتعبير القرآني: «يعبر في صورة، ويصور في مشهد حي نابض بالحركة والحوار... إن القرآن يعالج نفوسا بشرية، ويهدف إلى استجاشة عناصر الخير والمروءة والعزة فيها، وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والثقلة، لذلك يرسم هذا المشهد. إنه

يصور حقيقة ولكنه يستخدم هذه الحقيقة في موضعها أحسن استخدام في علاج النفس البشرية، ومشهد الاحتضار بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية، وتتحفز لتصور ما فيه. وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافا وتحفزا وحساسية» [18].

ويقول في تفسيره لقوله تعالى في سورة الكهف: " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » [19]، والبحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر، والبشر يكتبون بالمداد كل ما يكتبون، وكل ما يسجلون به علمهم الذي يعتقدون أنه غزير، فالسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارته في صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه فإذا البحر ينفذ وكلمات الله لا تنفذ، ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله ثم إذا البحر الآخر ينفذ كذلك وكلمات الله تنتظر المداد، وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب إلى التصور البشري المحدود معنى غير المحدود، ونسبة المحدود إليه مهما عظم واتسع. والمعنى الكلي المجرد يظل حائرا في التصور البشري، ومائعا حتى يتمثل في صورة محسوسة، ومهما أوتي العقل البشري من القدرة على التجريد فإنه يظل إلى حاجة إلى تمثل المعنى المجرد في صور وأشكال وخصائص ونماذج، ذلك شأنه مع المعاني المجردة التي تمثل المحدود فكيف بغير المحدود؟ لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها في صور ومشاهد ومحسوسات ذات مقومات وخصائص وأشكال على مثال هذا المثال» [20].

إن الحديث عن توظيف المعهود العربي بأبعاده النفسية وتجلياته التصويرية يعد مسرحا وأرضا خصبة استطاع سيد قطب أن يقرب من خلالها النص القرآني، ولا يسع الحديث في سرد

مزيد من الرؤى التأويلية والقرائية للنص القرآني، لكن لا شك بأن المعهود البلاغي اللغوي والفطري، يعد شقا أساسا في توضيح المعاني، وإن لفت النظر نحو التصوير والتعبير الحسي والنفسي، يعتبرها قطب خصيصة لغوية عند العرب، لكن لم تعط لها أولوية النظر في القاموس البلاغي من لدن الزمخشري والباقلاني وغيرهم مع أنها في اعتقاد سيد قطب سلما أساسا ومعيارا نقيا في فهم مقاصد التنزيل وبيان المعطيات النفسية والاجتماعية والحسية التي يراعيها النص القرآني في تقرير معانيه.

لا شك أن منهج سيد قطب في تجربته التفسيرية يحتاج إلى مزيد بعد النظر وعمق الدلالة، كل ذلك من وراء العبقرية التي استجاب بها في تناول النص القرآني ومعايشة مقاصده ومراميه.

خاصة الوعاء اللغوي عند سيد قطب وعلاقته بالفهم والتأويل، وقد لفتنا النظر إلى أهم تجل من تجليات التوظيف الدلالي لنوازع اللغة النفسية والسياقية والاجتماعية والحسية في النص القرآني وتقريبها.

الإحالات:

(1) محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحق أحمد شاكر، دار الفكر، ص40.

(2) المصدر نفسه، ص45.

(3) يحي رمضان، القراءة في الخطاب الأصولي، عالم الكتب/ الأردن، ط1:2007م، ص77.

(4) ابن رشد، الضروري في أصول الفقه، تحق جمال الدين العلوي، دار الغرب الإسلامي/لبنان، ط1:1994م، ص65.

(5) الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تح عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، 50/2.

(6) الرسالة، ص52/51.

(7) الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تح حسن مشهور، 131/2.

(8) المصدر نفسه، 2/103.

[9] الموافقات، 1/39.

[10] المصدر نفسه، 138/2.

[11] سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق/ القاهرة، ط17: 1412ه، 3\1787.

[12] سيد كشميري في بحثه: عبقري الإسلام سيد قطب: 356. ومن هؤلاء صبحي الصالح، وصلاح الخالدي، وعلي أحمد باكثير، ونجيب محفوظ.

[13] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق/ القاهرة، ط16: 2002م، 35/34.

[14] في ظلال القرآن : 37/1.

[15] البقرة: 29 – 30.

[16] في ظلال القرآن : 46/1.

[17] سورة النساء: 97.

[18] في ظلال القرآن: 744/2.

[19] سورة الكهف: 109.

[20] في ظلال القرآن: 2296/4.